جريمة أم قصاص

هذه قصة تكاتب القصصي الشهير جوزيف كونراد وهو بولوني الاصل انجليزي الثقافة ويعد من كبار القصصيين الانجليز . ويريد أن يظهر في هذه القصة كيف أن سوء الظن اذا استشرى واستغل قد يتملك ضمير المرء حتى يحكم بالظن من غير دليل ثم يعاقب بالظن .

كان (س) ربّان سفينة حربية وكان طويل القامة وقوراً جاداً صريحاً يكره النفاق والغش، وقد انتهز فرصة إجازة قصيرة فزار حبيبته وجعل يبثها حبّه . وكانت مستلقية على مقعد وهو راكع بجانبها وقد أسلمت إليه يدها فجعل يقبلها وكأنما منعها التعب من تحريكها. ولاضرما اضطربت أحاسيسها واختلطت في صدرها حتى اهتزّ من تنفسها أنفاساً عميقة . ولكنها قالت بصوت يكاد لا يختلف عن صوتها المألوف — قصّ عليّ قصة — وقد أخفى الظلام دهشة جليسها وابتسامته إذا ذكّرته نفسه إنه حدّثها قبل قولها هذا حديث حبه وهو أغلا ما يحدّث به رجل امرأة ولم يحدثها به لأول مرة فقال — قصة ؟ — « نعم لم لا ؟ » قالت ذلك بلهجة دلال امتعاض المرأة التي ترى أن رغبتها نافذة كشريعة القانون ومن الصعب تجنبها أو اغفالها . فردّد قولها لم لا ؟ بلهجة الساخر ، وكان متعاجباً من خروجها من حديث الحب بسهولة كما تخلع المرأة ثوباً أنيقاً . قالت وكان صوتها يهتز في نبراته اهتزاز جناح الفراشة في الضوء « إنك قبل هذه الحرب كنت تقص قصصك وأحاديثك الشائقة . فأين هي ولم تغيّرت ؟ » قال — ولكن العالم الآن يقاسي ويلات الحرب والحرب تغير أحوال النفوس — قالت قصّ إذاً قصة عالم آخر — قال إذا كنت تعنين عالم الآخرة فلا يستطيع أن يقص عليك قصته إلاّ من رحل إلى ذلك العالم ثم عاد منه — قالت — لا أعني الآخرة وإنما أعني عالماً آخر في هذا الوجود — قال سأعود بعد قليل من أجازتي إلى عملي وواجبي — كأنه بهذا القول يعاتبها لقطع حديث الحب . قالت دعنا من ذكر

الواجب فإنه قد يكون في هذه الأيام أمراً ضئيلاً مادامت الحرب دائمة — قال إنك تقول ذلك إذ تظنين أن الواجب أمرٌ محدود . كلاَّ إنَّ في الواجب ما لا حدَّ له من التفرق ... ألا ترين ذلك ؟ قال هذا القول وهو ينظر إليها بحدَّة مدققاً النظر — ثم صمت قليلاً وعاد فقال سأحدثك بقصة ربَّان سفينة حربية فهي قصة من قصص عالم البحار وهي قصة حياة وموت — قالت كما في هذا العالم ؟ قال ماذا تتوقعين عند ما يرسل إنسان من طينة هذا الخلق المذنب كي يبعث ؟ وماذا كان يجد غير ذلك عند ما يبعث ؟ وكيف تستطيعين أن تفهمي ؟ قال ذلك وكان يعالج مرارة الألم . ولكنها قالت — هل هي قصة فكاهة ؟ قال ستكون قصة تفهمي وربما كانت قصة فكاهة ولكنها فكاهة تامية مؤلمة بالرغم من أن مدافع السفينة الحربية لم تطلق بل ظلت صامتة كالمنظار المكبر . ولا يغيبنَّ عنك إنها قصة عالم مضحك في هزله وجدِّه وفي سلمه وحربه . وكانت للحرب تأهبة فوق الأرض وتحتها وعلى البحار وتحت البحار وفي الهواء . فهو عالمٌ غير حكيم . إلاَّ أن بعض الكياسة لم يخلُ منها جماعة من التجار في الأمم الحايدة . وكان لا بدَّ من مراقبتهم مراقبة دقيقة فأرسلت الحكومة ربان السفينة الحربية لمراقبتهم حين شاع ان بعضهم يأتي بخزانات طافية ملؤها الوقود السائل في بقاع معينة كي تلتقطها غواصات الأعداء وتتمكن بهذه الوسيلة من البقاء بعيدة من قواعدها ومن أغراق سفننا الحربية والتجارية بمن فيها من محاربين أو مدنيين من رجال ونساء وأطفال . ومما كان يدهش له ربان السفينة الحربية ان سطح البحر قلما كان يتغير من حالاته في وقت السلم . فكان من الصعب أن يعتقد الرائي أن في قاع البحر كيناً ضبأً معدًّا لهلاكه حتى يرى سفينة تصاب أمامه وتغرق قبل أن تعرف ما حلَّ بها . ثم ينطوي عليها سطح البحر كأنْ لم يحدث شيء . عندئذٍ يوقن انه سيهلك يوماً ما كما هلك أهل تلك السفينة وسيغرق كما غرقوا وربما كان ذلك مباغتة وهو آمن . وعندما يوقن بذلك ربما يحسد جنود البر إذ يحمرون العرق والدم من وجوههم عند نهاية المعركة ويرون أهلاء الذين هلكوا ويرون الأرض الممزقة كأنها تتألم وتدمى — نعم إنها وحشية ولكنها وحشية صريحة . أما البحر فانه يدعي أن الدنيا بخير وهي ليست بخير — إذ أنه يطوي في أعماقه آثار الجرائم التي تجترم على سطحه . قالت « آه . . . اني أعرف انك موسوم

بالصراحة وصدق السريرة والغضب للحق ... ان الغضب لمحق عقيدتك » فنظر إليها بقلق وقال « أليست هي عقيدتك أنت أيضاً ؟ ألسنا شريكين ؟ » ثم عاد الى قصته فقال ان الليل سريع في اخفائه للاشياء في عرض البحار وكأن الليل نفاق صديق قديم قد عرفت نفاقه وألفته واسترحت إليه، أما الضباب فانه يخفي ولا يريح ويغيض وكأنه لا يغض . ففي يوم من أيام الضباب كانت السفينة الحربية تسير قرب شاطئ صخري كثير الاخطار بسبب الصخور التي تضمرها المياه واذا خف الضباب لاح الساحل كأنما رسم بالحبر الاسود على ورق رمادي اللون — قال مساعد الربان الحربي اني أرى شيئاً طافياً على سطح الماء . وعندما اقتربت السفينة منه رأوا أنه برميل أو خزان وربما كان من تلك الخزانات الطافية التي يلقيها بعض التجار المجتمعين الهايدين كي تلتقطها غوامات الأعداء فتأخذ ما بها من الوقود السائل . هكذا شاع الخبر وان لم يقم على صحته دليل إلا اذا كان ما رآه ربان السفينة الحربية ومساعده دليلاً . قال يحدث نفسه ولكن لماذا لم تلتقط السفينة التجارية الخزان بعد تعريفه . فأجابته نفسه قائلة لعلّ ربانها رأى ضرورة في الاختفاء قبل التمكن من التعامه . فبدأ الظن يتحول يقيناً في نفسه وعمر بالتميز من خيانة بعض الهايدين وغدرهم . فقالت حبيبته الذي يحدثها اني أستطيع أن أفهم اشمئزازك . قال لهم فان الغش والخيانة لا يجوزان في الحب والحرب لان الحب والحرب داعيان يدعوان النفس الى السُّبُل العليا ، ومن الجائز أن يستغلا منها بدعوى ضرورة النصر فيهما — قال واستمرت السفينة في مسيرها فازدادت كثافة الضباب وانقطعت الأصوات أو خفتت لان الضباب يجعل الأصوات تتضاءل أو تنقطع ولم يستطع إنسان في السفينة الحربية رؤية إنسان آخر . وكالصوت وقع أقدام الملاحين كأنه وقع أقدام أرواح وأشباح . وكان الربان الحربي قد درس هذا الشاطئ وعرف أنّ أمامه خليجاً فرأى أن يرسو بسفينته في ذلك الخليج حتى ينجلي الضباب وعندما استقرت السفينة في الخليج كان الضباب كثيفاً حتى أنه منع الأعين من رؤية الشاطئ إلا أن صوت الأمواج وهي تصدم ذلك الشاطئ كان يصل إلى السفينة الحربية كأنه من عالم آخر غريب على قربه منها . وبعد قليل خف الضباب من ناحية مدخل الخليج فهمس مساعده في أذنه قائلاً إني أرى سفينة قرب مدخل الخليج ، فدقق الربان النظر فرآها وقال من غرائب حسن الحظ أن سفينتنا لم تصطدم بها أثناء دخولنا . وكان يظنها في يده الأمر من السفن

التي تتاجر بنقل البضائع مرّ نظره إلى نفر على ذلك الساحل. إلاّ أن شكًّا بدأ يتردد في ذهنه وفي ذهن الضابط المساعد الذي قال انّنا دخلنا الخليج من غير سحة ولكن ربانها لابدّ أن يكون قد أحسّ بدخولنا ومع ذلك فانه لم ينذرنا بوجوده كي نتخذ الحذر لمنع الاصطدام. وكأنه هو ورجاله كانوا صامتين من الخوف. قال الربان الحربي لعلّ يخيل لي أنّ الأمر كما تقول وزاد شكه في أمر السفينة التجارية فأوصل اليها ضابطاً ينظر في أمرها ويمنعها من الخروج فذهب الضابط ثم عاد وسأله رئيسه تلاً هل هي من سفن هذا الساحل؟. قال لا ياسيدي إنها سفينة غريبة ضلّ صاحبها الطريق بسبب الضباب واضطرار آلاتها فلجأت الى هذا الخليج خشية أن تهشم على الصخور في أثناء سيرها. وقد أصلح رجالها آلاتها وهي مهيأة مستعدة للسير، لكن ربّانها لا يجرأ على الرحيل إذ أنه يجهل الاتجاه الذي ينبغي أن يتجه إليه في سير السفينة فالتفت رئيسه الى مساعده وقال لقد كنت مصيباً إذ ظننت أن رجالها كانوا صامتين من الخوف كي لا نعرف وجودهم. لكن مساعده بدأ يشك في هذه فقال إنّ الضباب يا سيدي يحجب الأصوات ويطمسها حتى الأصوات التي في سفينتنا نكاد لا نسمعها. ولعلّ الضباب الذي منعنا من رؤية السفينة التجارية في أثناء دخولنا منع ربانها من رؤية سفينتنا. ثم ما ذا كان مراده من إخفاء وجوده؟ قال رئيسه كي يهرب فلا ننظر في أمره. قال المساعد ولماذا لم يفعل؟. لماذا لم يهرب إنه لو حرّك سفينته ربما سمعنا صوتاً خافتاً في الضباب ولكن الضباب كان يحجب السفينة في طرفة عين فلا نعرف أين ذهبت. وعاد الضابط الذي نظر في أمرها لإتمام حديثه. فقال إنّ أوراقها مستوفاة لا عيب فيها وبضائعها ليست من البضائع المحرّمة في الحرب وهي ذاهبة إلى ثغر إنجليزي ولم أجد فيها مدعاة لسوء الظن ورجالها ليس عليهم مظهر ريبة وربانها من أهل شمال أوربا. والظاهر إنه كان قد أحسّ خيراً وبدأ يضيق من انتظارها وقد أخبرته أني لا آذن له بالرحيل. فقال إنه لا يجرأ على أن يحرك سفينته من مكانها في هذا الضباب سواء أذنت له بالرحيل أم لم آذن — ولكن رئيسه لم يستطع فهم هكه وقال أليس من الجائز أن تكون هذه السفينة هي السفينة التي تموّن غواصات الأعداء بالوقود السائل في خزانات طافية كالخزان الذي رأيناه. قال مساعده إنك لا تستطيع إثبات ذلك يا سيدي. والظاهر من تقرير الضابط الذي نظر في

أمرها إنه لا توجد مدعاة للريبة . قال الربان الحربي سأذهب اليها وأستطلع أمرها بنفسي. وحب الاستطلاع هو مدعاة للكره أو الحب، فما الذي كان يأمل أن يجد فيها ؟ انه كان يتلمس الشبهات ويأمل أن يجد فيها ما يسوغ شكه حتى يصير دليلاً . ولعله كان يأمل أن يرى أو يشم أو يذوق دلائل الغدر والخيانة أو ان يرجى اليه فيها إيحاء يحوّل شكه الى يقين فيستطيع أن يعمل عملاً حاسماً وأن يرفع قصاصاً صارماً عادلاً . ذهب الربان الحربي الى السفينة التجارية فقابله صاحبها ، وكان رجلاً ضخم الجسم كث اللحية وكان واضعاً يديه في ثيابه كأنما كان يخشى أن يقبض عليهما أحد. أو هكذا خيّل للقائد الحربي فان الشك إذا صاور النفس اتخذت له من كل أمر دليلاً وإن كان ليس بدليل . وكان صاحب السفينة التجارية يتمايل في مشيته فهل كان تمايله من الخمر إذ أن خيانة الخائد بتمويته غرامات الأعداء عقابها الموت ؟ أم كان تمايله من بقايا أثر الخمر التي ظهرت واضحتها لمن قاربه ؟ . وفتح باب حجرته وأسند ظهره إلى جدار الحجرة قليلاً كأن به دواراً من الخوف أو هكذا خيّل للقائد الحربي ولكنه ما لبث أن تبعه الى داخل الحجرة وأنار المصباح الكهربائي ثم أعاد يديه بسرعة إلى ثيابه كأنما خشي أن يقبض عليهما عدوٌ وألقى بنفسه على مقعد قائلاً « ها أنا ذا » ولاح عليه كأنما أدهشه صوته أو هكذا خيل للربان الحربي الذي كان ينظر إليه كأنما يريد بنظراته أن يصل الى أعماق نفسه فيعرف أسرارها . ثم قال صاحب السفينة أريد أن أقول لك ياسيدي أني لا أعرف أين أنا فقد ضللنا الضباب أسبوعاً وكُسِرَ جهاز السفينة وكان يتكلم بسرعة كأنما يريد أن يقنع الربان الحربي بالرغم منه أو هكذا خُيّل للربان الحربي ، ومع ذلك فقد كان في حديثه فترات سكوت قصيرة كل فترة هي لمح توان. وقد خُيّل للربان الحربي أن تلك الفترات من فترات السكوت كانت من خفية الزلل في نص قصة ملفقة ولو أنه لم يلح على وجه صاحب السفينة شيء من هذا الشعور وخُيّل للربان الحربي أن القصة مرتبة ترتيباً فنياً يباعد صدق الحديث. ولكن ربما كان هذا الظن من شكه الذي لم يستطع مغالبته ، بل كان في أثناء حديث صاحب السفينة يحدث نفسه حديثاً آخر عن جشع بعض الخائدين وتمويتهم غرامات الأعداء فكأنهم هم الذين أغرقوا ضحاياها . حدّث نفسه هذا الحديث كي لا يقتنع وكي لا يخدعه حديث صاحب السفينة

وكي يشعل نار البغض في قلبه . قال صاحب السفينة إن هذا الضباب يملأ النفس قلقاً فأبي لا أكسب إلاّ الكفاف من رزق أسرتي وأشار الى صورهم المعلقة على الجدار .

قال القائد الحربي : ولكن هذه الحرب ستغنيك وتغني أسرتك . قال صاحب السفينة إذا لم تتهشم السفينة وأخسرها . ولكن لماذا تغضب ياسيدي إذا درّت الحرب على التجار أرباحاً . إننا لم نشعل نار الحرب ولو قعدنا واستمنا عن العمل للكسب ما انتفع العالم . قال الربّان الحربي لقد أوضحت لي كيف صرت الى هذا المكان ووصلت الى هذا الساحل ودفتر سجل سير السفينة يؤيد ما تقول . ولكن من المستطاع تلفيق هذا السجل . فأطرق صاحب السفينة ثم رفع رأسه بعد قليل ونظر الى الربّان الحربي قائلاً ولكن هل تسيء بي الظن ؟ لأي أمر يا سيدي ؟ وعلام تتهمني ؟ ان بضائع سفينتي لتجر انجليزي . قال ذلك بصوت خيل للربان الحربي أنه متغير من الخوف كأن به بحة من القلق ولكن الربان الحربي كان يسائل نفسه لماذا لم يتذرنا بوجوده عند ما دخلت سفينتنا الخليج . ولماذا كان جهاز سفينته مهيئاً للسير ؟ أليس ذلك دليلاً على أنه هو الذي يمرّن غواصات الأعداء ؟ ثم خرج الربان الحربي واستعرض الملاحين وسألهم أسئلة فلم يستطع من اجابتهم أن يثبت كذب صاحب السفينة . فقال لا علك إنه وعدهم أجراً كبيراً ومكافأة خاصة ثم هم لا يخشون منا شيئاً ما داموا لا يبوحون بشيء . لم يظفر الربان الحربي بأي دليل يثبت سوء ظنه ويسوغ شكه ، ولكنه رأى أنه يحدث نفسه كأن أمر غدر هذا التاجر الحايد وخيانته لقانون الحياد أمر ثابت لا شك فيه . وعاد الى الحجرة فتلقاه صاحب السفينة وعلى وجهه دهشة فنظر اليه الربان الحربي وقال : يخيل لي أن دهشته مصطنعة مبالغ فيها فهي ليست دهشة طبيعية بل هو يتكلف الدهشة كي يقيم الدليل على براءته . فشعر باشمئزاز من غدر الناس ونفاقهم وقال في نفسه : لا علك ان كل الناس من آكلي اللحوم البشرية . أليس المال الذي يكسبه التاجر من تموين الغواصات ويشتري به قوته وهو من لحم الضحايا الذين تغرقهم تلك الغواصات ؟ فكأنه يأكل من لحم الضحايا . ثم لفظ إلى التاجر صاحب السفينة التجارية وقال له ممتحناً ومختبراً ألم تر شيئاً طافياً على وجه الماء ؟ . قال التاجر : قلت لك يا سيدي ان الضباب كان يلازمنا فلم نستطع أن نرى شيئاً . قال الربان الحربي ولكنا استطعنا ان نرى خواناً من وقود سائل طافياً على وجه

الماء وكان الضباب يخف في بعض الأماكن ، ثم أخبره بما استنتجه من تدوين بعض التجار المهاجرين لتحركات الأعداء. فوقف صاحب السفينة كأنه قد صعق وألقى صعوبة في التنفس ثم تكلف ابتسامة حائرة مرتبكة لا معنى لها . فأخذها الربان الحربي دليلاً آخر على أنه مجرم . وقال ان المهاجرين الذين يرتكبون هذا الجرم خليقون بعقوبة أشد من عقوبة الشنق .

فقال صاحب السفينة وهو متعجل في قوله نعم . نعم . نعم . ثم فكر قليلاً وقال ربما . ربما .

قال الربان الحربي وهو محنق مغيظ ربما انهم خليقون بعقوبة أشد من الشنق .

قال صاحب السفينة بهدوء نعم ولكن المغري لهم أولى بالعقاب يا سيدي . المغري الذي يأتي بسرعة ملؤها الذهب الى رجل فقير لا يجد قوت عياله إلا بشق النفس فيفكر في تعاسة ذويه وفي الذهب الذي أمامه وأنا لا أذكر هذا عن نفسي فانك قد لا تدرك يا سيدي أني على ضخامة جسمي ليست لي الأعصاب السليمة القوية التي تدفع بي الى المغامرة فأكتفي بالرزق القليل المكفول اذ لا أستطيع المخاطرة ! ولكن الرجل الفقير الذي يستطيع المخاطرة لا يتخيل ما يعلق بركاب السفن التي تعترضها الغواصات لأنها مناظر لا يشهدها ، فهو لا يرى الا الذهب وشقاء أسرته التي يسعى لكسب قوتها فيرضى أن يعرّض الغواصات بالوقود السائل خلية ويوهم نفسه انه لم يشترك في اغراق أناس . ولا أعني نفسي يا سيدي. فأنا رجل لا قدرة له على المغامرة ولو غامرت مثل هذه المغامرة لأصابني الجنون من القلق وخوف العاقبة أو لحاولت إغراق قلبي باحتساء الخمر ليلاً ونهاراً . فمن أية ناحية نظرت الى هذه المغامرة أرى الوبال والخراب

قال الربان الحربي وقد اقترب وجهه من وجهه بل الموت لا الخراب وحده !

قال صاحب السفينة هذه مسألة لا تهمني يا سيدي

قال الربان الحربي ومع ذلك فلا بد أن ترحل من هنا الآن — قال لصاحب السفينة : في هذا الضباب ؟ قال نعم . لا بد أن ترحل في هذا الضباب الآن ، قال صاحب السفينة : ولكني لا أعرف أين أنا ولا أدري كيف أقود السفينة في أي اتجاه ينجيها من الصخور

المغمورة . قال الربان الحربي صاخراً : آه انك لا تدري ؟ إذاً سأدلك على الاتجاه الذي تعلكه بسفينتك — ثم ذكر له إتجاهاً باصطلاح السفن في البحار فتردد صاحب السفينة وقال أمن المحتم أن أرحل في هذا الضباب ؟ . قال الربان الحربي نعم من المحتم وإلاّ . . وإلاّ فقال صاحب السفينة لا داعي لتهديد يا سيدي سأرحل كما تريد . . ثم رحل بسفينته .

والتفت الربان الحربي الى حبيبته التي كان يحدثها حديث القصة واقترب منها قائلاً : أتعرفين إلى أي شيء كان يؤدي ذلك الاتجاه الذي دله عليه الربان الحربي ؟ انه كان يؤدي الى صخور مغمورة لا تنجو منها سفينة ترتطم بها وقد اصطدمت بها السفينة وغرقت وغرق كل من كان بها . وهذا دليل على أن ربانها لم يكن كاذباً في قوله انه يجهل أين هو فانه لو كان يعرف ، ما سار في الاتجاه الذي دله عليه الربان الحربي . نعم لقد كان صادقاً ولكن صدقه لا يدل على براءته — قال الربان الحربي ذلك بقلق وهو يحاول أن يقنع نفسه أن لا داعي للقلق

* * *

ثم ترك الربان الحربي دعوى لسة حادث القصة الى رجل آخر وقال نعم أنا الذي وجهته الى تلك الصخور المغمورة وكنت أظن أن ذلك امتحاناً له واختباراً اختبر به صدق نفسه وبراءته . ولكني الآن لا أدري أكان ذلك اختباراً صحيحاً أم أني دفعته هو ومن معه الى الهلاك بالتهديد . وعندما أفكر في احتمال براءتهم يخيل لي أني أرى جثثهم في قاع البحر تأكل منها الأسماك . نعم لا أدري أكنت قاضياً وقع جزاء عادلاً صارماً ، أم كنت أثيماً ارتكب جرماً كبيراً ؟ .

فمدّت حبيبته يدها الى ذراعه وقالت . . . مسكين . . . مسكين بالتماسك أيها المسكين !

فسحب الربان الحربي ذراعه وقبّل يد حبيبته متصرفاً — وقال لا أدري أكنت قاضياً أم مجرماً ؟ . لا أدري ولن أدري . وسأعيش ما عشت في هذه الحيرة .

— منقولة عن الانجليزية بتصرف قليل —

ع . ش